الأحكام النقدية الذَّوقية في العصَّر الجاهلي

إذا كانت طفولة النقد الأدبي قد غابت عنا فلم نعرف عنها شيئا فإن الأحكام النقدية التي احتفظ بها التاريخ الأدبي تعتبر أولى صور النقد الادبي وسنعرض فيما يلي لهذه الأحكام والمستقرئ لها يجدها لا تخرج عن ثلاثة أقسام مهما تعددت وتشعبت.

1- الشَّكل:

اهتمت مجموعة من هذه الأحكام بنقد الجانب التصويري في الشعر وإن كان هذا النقد لا يتناول الصورة بشكل موسع بل يتعرض لعنصر جزئي معرضا عن كل الجوانب الأخرى للصّورة وقد كان ذلك في حكم طرفه بن العبد على بيت للمسيب بن علس الذي وصَف فيه ناقته:

وقد أتناسى الهم عند ادكار [1] بناجٍ عليه الصَيعرِية مكدم

فقال له طرفه: استنوق الجمل.

الشيء اللافت للانتباه هو طابع الارتجال الذي طبع هذا الحكم ولكن مع ذلك لم يخرجه عن دائرة الصواب والدافع الى هذا هو الحس اللغوي الذي يتمتع به طرفه فنفسه أبت أن يوصف الجمل بصفة ليست منه ولهذا انتبه إلى الخلط الذي وقع فيه المسيب عندما خرج في وصفه للجمل إلى صفة من صفات الناقة ولم ينكر المسيب ملاحظة طرفه بل اندهش من دقتها وحدة ذكاء الصبي.

فهذه الصفة التي أطلقها المسيب على الجمل شاذه لا تتفق والصورة الكلية التي رسمت للجمل ومن المعلوم أن الصورة الفنية تنهض من إئتلاف العناصر الجزئية وانسجامها فإذا أسيء استخدام عنصر من هذه العناصر انعكس على الصورة أو المشهد الكلي لما يحدث فيه من اضطراب وتشويه يأباه الذوق العام الذي اعتاد على التنظيم السليم.

ومن الأحكام النقدية الفنية التي اهتمت بالصور ه وتشكيلها حكم أم جندب: فقد تنازع امرؤ القيس وعلقمه بن عبدة في الشعر أيهما أشعر؟ فقالت أم جندب لهما: قولا شعرا تصفان فيه فَرسيكما على قافيه واحده وروي واحد.

فقال امرؤ القيس:

خليليَّ مرا على أم جندب نقضي لبانات الفؤاد المعذب

وقال علقمه:

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يكُ حقاً طول هذا التجنُّبِ

فأنشداها جميعا القصيدتين.

فقالت لا مرئ القيس علقمه أشعر منك.

قال كيف؟

قالت لأنك قلت:

فلسَوط الهوب ولساق دبرة وللزجر منه وقع أخرج مهذِب

فجهدت فرسك بسوطك في زجرك ومرِّيته فأتعبته بساقك.

وقال علقمه:

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلَب

فأدرك فريسته ثانيا من عنانه لم يضربه ولم يتعبه (2)

إن أم جندب قد حكمت بين الشاعرين من خلال صورتين فنِيتين ولم تتسع في مفاضلتها فتحكم بين القصيدتين فرأت في الصورة التي رسمها امرؤ القيس لفرسه مالا يختلف عن الواقع في شيء ليس فيها من ابداعات الخيال ما يميزها عن صورتها في الحياة صوره فيها إرهاق وإجهاد للفرس فقد راح يزجره ويستحثه على العدو كي يدرك طريدته، في حين كانت الصُّورة التي رسمها علقمه لفرسه فيها من ابداعات الخيال ما جعلها تسمو عن الواقع الى عالم المثل الجميل، إذ علقمة أدرك طريدته وهو ثانٍ من عنانه لم يضربه بسوط ولا مرَّاهُ بساقٍ ولا زَجَرهُ.

في ضوء هذا التّحليل تكن صورة امرئ القيسي صورة واقعية حاول أن ينقل المشهد حياً كما هو في الواقع فلم يسمُ بخياله فيُهذِّب الواقع الذي شاهده ويرتقي الى الصورة النمطية التي تحاكي الحقيقة التي ينشدها الفن، بينما كان عَلقمه ينشد الحقيقة فتناول الواقعَ وارتقى به الى الحقيقة التي يتصورها للفَرس في ذِهنه وهذه هي غاية الفن أن يجمل الواقع ويتجاوز به

الصّورة التي وجدها عليها الى الصورة النموذجية التي يجب أن يكون عليها وفي هذا المجال نورد تعليقا للبَهبِيتي على هذا الحكم يؤكد ما ذهبنا اليه:

(*امرؤ القيس يصف الواقع الذي وجده في طرده ولحاق صيده وصفا معربا أصدق الإعراب دالا تمام الدلالة على حال فَرسه في ذلك لم يذهب الى غير الواقع مغاليا مسرفا أو بعباره أقصر لم يكذب وقد صور ذلك أحكم تصوير و أدقه حتى أن الألفاظ نفسها بجِرسِها وبترتيبها وبموسيقاها فضلا عن معانيها تكاد تحكي لنا السوط في رفعه ووقعه و حالة جَزره بساقه واندفاع الفرس في عُنف بالغ أَشبه فيه بذكر النعام يندفع مسرعًا عاجلاً وصاحب الانتصار لعلقمه على لسان امرأة أراد إلى شيء غير الشِّعر، أراد الى جودة الفَرَس بصرف النّظر عن الواقع وأن يكون الفرس خيرا الأفراس جميعا مغايرٌ لأن يكون الشعر قد طابق الحقيقة ووقع عليها أو لم يطابقها فهو من أصحاب المبالغة والإفراط و لم يكن كذلك امرؤ القيس*[3])

وغير بعيد عن حكم أم جندب حكم النّابغة على حسان بن ثابت حين أنشد:

لنا الجَفنات الغُر يَلمعن بالضُّحى وأسيافنا من نَجدة يقطُرن دَما

وَلَدْنا بني العَنقاء وابني مُحرَقٍ فأكرِم بنا خالا وأكرِم إبنَما

فقال النابغة أنت شاعر ولكنك أقللت جِفانك وأسيافك وفخرت بمن ولَدت ولم تفخر بمن ولَدك [4].

إن نزعة المبالغة هي التي تقف وراء هذا الحكم إذا أن فن الفخر يتطلب من الشاعر أن يسخّر من الأدوات الفنية ما يُتيح له التفوق والتفرد على الشعراء ومن هذا المُنطلق حكم النابغة على حسّان بالفشل في انتقاء الصّيغ اللغوية الدّالة على معاني الفخر القوية التي يطلبها الذوق إذ المعروف أن الرّجل يفخُر بآبائه وأجداده ليُظهر أصالته أما أن يفخُر بأبنائه فهذا ما لا يستسيغُه الذوق العام وقد وقع في هذا الخطأ وهذا ينبا عن عدم تمرُس حسان بفن الفخر في هذين البَيتَين لذلك تَعرّض لهذا الحكم وقُدِّم عليه الأعشى والخنساء. وقد توقف الصُّولي عند نقد النابغه وأعجب به إعجاباً كبيرًا فقال:

(فأنظر *الى هذا النقد الجليل الذي يدل عليه نقاء كلام النابغه ودباجة شعره قال: أقللت أسيافك لأنه قال: وأسيافنا وأسياف جمع لأدنى عدد والكثير سيوف، والجَفنات لأدنى عدد والكثير جِفان، وقال فخَرت بمن ولَدت لأنه قال ولدَنا بني العَنقاء وابني مُحرَّق، فتَرك الفخر بآبائه وفخر بمن ولدت نساؤه* [5]).

2- نقد المعنى:

كان الإِغراب في المعَاني محط أنظار النقاد في العصر الجاهلي حتى إذا ما شذَّ أحد الشعراء عن المعتاد سارع الذوق الى مجِّه وذمِّه من ذلك ما قاله المهلهل بن ربيعه واعتبرته العرب من أكذب الأبيات قال:

فلولا الريح أُسمع من بحِجر صَليل البِيض تُقرع بالذُّكور

فالذوق العربي يأبى هذا الغُلو الذي من شأنه إفساد المعنى واخراجُه عن حقيقته وقد عُدت هذه المبالغة في إدراك الأمور وخاصه عن طريق السمع، إذ السَّمع مجال إدراكه محدود -عيبٌ شعريٌ-

وقد قال رجل لزهير سمعتك تقول لهَرم بن سنان:

ولأنت أشجَع من أُسامه إذ دعيت نزال ولجَّ في الذُّعر

وأنت لا تكذب في شعرك فكيف جعلته أشجع من الأسد؟
فقال: إني رأيته فتح مدينة وحده وما رأيتُ أسدا فتحها قطُ وقد علَّق ابن رشيق على ذلك بقوله:
فقد خرج لنفسه طريقا إلى الصدق وعدى عن المبالغة [6].

3- الموسيقى:

ومن الأحكام التي اهتمت بالجانب الموسيقي في الشعر ما أنكره أهل يثرب على النابغه فقد قيل: لم يقوِ أحد من الطبقة الاولى ولا من اشباههم إلا النَّابغة في بيتين [7].
فلما قدم المدينة قالوا لجارية إذا صرت إلى القافية فرتلي فلما قالت: «الغُراب الاسودُ" و"مُزَوّدِ" علم فانتبه فلم يعُد فيه» كما وقع أيضا بشر بن أبي خازم في الإقواء وقد نبّهه إلى ذلك شقيقه عندما قال:

ألم تر أن طول الدّهر يسلي ويُونسي مثلما نُسيَت حَذَامِ
وكانوا قومنا فبَغوا علَينا فسّقناهم الى البلد شآمي

فالأذن العربية كانت تُدرك الاختلال الذي يَقع في القافية وما ينتُج عن ذلك من اضطراب في الموسيقى الشعرية.

وفي آخر استعراضنا لهذه الأحكام في العصر الجاهلي نتعرض إلى موقف المجتمع من الشعر لنقف على الذوق العام للمجتمع وأبرزُ حكمٍ للمجتمع هو حكمه على قصيدة سُويد بن أبي كاهل التي مطلعها:

بَسَطت رابعه الحبل لنا فَوَصلنا الحَبل مِنها ما اتَّسع

قال الأصمعي إن العرب كانت تفضلها وتعدها في حكمها وإنها كانت تُسميها في الجاهلية اليتيمة.

كما مثلت قريش الحَكم النَّاقد الذي ينتقي القصائد ويُسقط عليها احكاما تقييميّة، إذ أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش فما قبلته كان مقبولا وما ردّته كان مردودا، وذُكر أن علقمه بن عبده لمّا أنشدهم قصيدته:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم
أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم؟

قالوا هذا سمط الدهر فلما عاد وأنشدهم قصيدته:

طاحا بك قلب في الحِسان طروبُ بُعيده الشباب عصرَ حانٍ مشيب

قالوا هاتان سمطا الدّهر.

فعمليه الاحتفال بهذه الأبيات وتلقيبها بشتى الألقاب يكشف عن حس شعري وذوق راق ويظهر ذلك في المعلقات التي كان يحتفل بها المجتمع ودفعه حبه واعجابه بها الى كتابتها بماء الذهب وتعليقها على ستور الكعبة.

---

1. في الشعر والشعراء: ج1 ص183. عند احتضاره.
ابو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزوباني: الموشح - تحقيق علي محمد البجاوي - دار النهضة مصر1965 صفحه 109-110-111.
2. المرزوباني: الموشح ص28-29.
3. الدكتور نجيب البهبيتي: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري - دار الفكر- الطبعة 4 ص72.
4. المرزوباني: الموشح - ص 82.
5. الموشح - ص 33.
6. العمدة - ص 75.
7. الموشح - ص 45.